

تاهرت مدينة الجلال والعظمة في عيون العلماء

والرحالة والمؤرخين والجغرافيين.

La ville de majesté et de grandeur aux yeux des
savants

Voyageurs, historiens et géographes.

كربوش إبراهيم*

جامعة 08 قالمة 1945 (الجزائر)

Kerbouche.brahim@uviv-guelma.dz

تاريخ القبول: 2022../.05../16

تاريخ الاستلام: 2022../.03../01

الملخص:

يتناول الملخص إحدى المدن الجزائرية العريقة التي كتبت اسمها على صفحات التاريخ الجزائري، ومضى ذكرها في عرض البلدان وطولها، إذ نافست مدنا عريقة زاهية كبلخ ودمشق والعراق. وهي دولة إباضية أسست بنائها في المغرب الأوسط، وهي كذلك من الدول التي استقلت عن الدولة العباسية. وعرفت ازدهارا واسعا، غطى مجالات الحياة المختلفة علما، فكرا، فلسفة وعمرا، وزادها موقعها الاستراتيجي حصانة ومنعة، كما أنها كانت أرضا خصبة كثيرة الخيرات كثيرة المياه، وأشتهر حكامها بالعلم والفقه، فأشاعوا الحريات ومبادئ التسامح، فكانت بذلك بلدا آمنا، يقصده الناس من كل حذب وصوب، حيث أقامها العلماء، الرحالة، الجغرافيون، المؤرخون وغيرهم، وكل سال لسانه تعبيرا عن جمالها، وكثرة خيراتها، ووفرة مياهها، وازدهار عمراتها.

كلمات مفتاحية:

Abstract: The summary deals with one of the ancient Algerian cities whose name was written on the pages of Algerian history, and it was mentioned in the width and length of the countries, as it competed with the ancient and colorful cities of Kabalkh, Damascus and Iraq. It is an Ibadi state that established its structure in the central Maghreb, and it is also one of the countries that became independent from the Abbasid state. And it knew a wide prosperity, which covered the various fields of life in science, thought, philosophy and urbanization, and its strategic location increased its immunity and inviolability. It swayed towards and towards, where its mother was scholars, travelers, geographers, historians and others, and each spoke his tongue to express its beauty, its abundance of bounties, its abundance of water, and the prosperity of its construction.

Keywords: geographers; historians; Ibadites; Tahert; travelers

المقدمة:

تيهت أو تاهرت* مدينة استطاعت أن تصنع لها تاريخاً ومجداً، وأن تسجل نفسها مع مثيلاتها من المدن التي اكتسبت شهرة وعراقة. احتفظ التاريخ باسمها فخلدها على صفحاته فهي كتاب يقرأ، فيمتع، وأخبار تدرس وتبحث، في سطور تحتفظ بكنوز عريقة تشف عن أصالة ومجد لا زال يستصرخ أبناءه ليستنهض الهمم، ويحيي ماضٍ ينتظر من يمسخ غبار النسيان والإهمال.

تيهت مدينة اصطفت إلى جانب بلخ¹، ودمشق²، والعراق³، وهي مدن عريقة حفرت على صفحات الذاكرة تاريخها وعزها الأثيل. ومازالت هذه المدينة الإباضية* التي اختارت المغرب الأوسط أرضاً ومستقراً، ترسم على أديمه طموحاتها وإنجازاتها، في فترة من فترات الزمن (160-296هـ). وهي من الدول الأولى التي استقلت عن سلطة الخلافة العباسية بالمشرق، وقد ضيق عليهم وتعرضوا لبأس شديد، فحملوا دعوتهم إلى المغرب حيث استطاعوا أن يؤسسوا دولة لهم، كانوا يحملون في تحقيقها في المشرق، فوجدوا في المغرب الأوسط تربة خصبة، ومرتعا ملائماً لبث أفكارهم ومذهبهم⁴، فالمغرب الأوسط بعيداً عن سلطة العباسيين، كما أن موقعها قد اختير بعناية فائقة يصعب اختراقه لأنها تقع في منطقة داخلية منظوية على نفسها في السفح الجنوبي لجبل جزول، لذا فهي تدير ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل، وهذا يمثل موقعاً استراتيجياً لحماية دولة ناشئة يحيط بالأعداء بها من كل جانب، فإن قرب تيهت من الصحراء يمنعها من الوقوع في يد العدو في أيام الحرب، كما أن موقعها هذا بين جبال الأطلس إلى بلاد التل الخصيبة جعلها تهيمن على بلاد المغرب من الجهات الأربع، فلا هي متطرفة جنوباً، ولا شمالاً، ثم أنها كانت حسب موقعها الجغرافي أيضاً متوسطة بين ولاية تونس والمغرب الأقصى⁵، فقد حالف التوفيق عبد الرحمن بن رستم في هذا الاختيار، لأنه كان على معرفة ودراية بهذا المكان من قبل. وليس غريباً أن يرضخ بربر المغرب الأوسط

*- أغلب الجغرافيين والمؤرخين أطلقوا عليها تاهرت أو تيهت عند البعض مثل ياقوت الحموي في معجم البلدان، ابن خلدون في تاريخ ابن خلدون، زكريا بن محمد بن محمود القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد، الاستبصار في عجائب الأمصار، مجهول المؤلف، الأصبخري في الممالك والمسالك، المقدسي في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبي عبد الله محمد الحميري في الروض المعطار، اليعقوبي في البلدان، محمد بن حوقل البغدادي في صورة الأرض، الدرجيني في طبقات مشايخ المغرب، إسحاق بن الحسين المنجم في آكام المرجان. أما من أطلق عليها تيهت ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب، وابن القاسم الرقي في تاريخ إفريقيا والمغرب، ويذكر ياقوت الحموي أن سبب تسميتها تاهرت يعود إلى نزول عبد الرحمن بن رستم موضعاً مربعا لا شعراء (نوع من الشجر) فقالت البربر: نزل تاهرت، تفسيره الدف لتربيه.

¹ - أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط: 3، مكتبة مدبولي - القاهرة، 228/1.

² - المصدر نفسه، 228/1.

³ - المهلي، المسالك والممالك، 48/1. اليعقوبي، البلدان، 192/1.

⁴ - محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب، ط: 2، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ص: 32، 1985.

*- الإباضية: هم أتباع عبد الله بن إباح التميمي الذي خرج أيام مروان بن محمد، أسسوا دولة بالمغرب، يطلقون على أنفسهم أهل المذهب أو أهل الدعوة، ليسمون إمامهم أمير المؤمنين ولا يعدون أنفسهم مهاجرين كما يفعل الخوارج، يجمعهم القول بأن كفار الأمة يعنون مخالفيهم من أهل القبلة ليسوا مشركين ولا مؤمنين بل كفار نعمة وليسوا كفار عقيدة وتجاوز لذلك شهادتهم وتصح مناكحتهم والتوارث عنهم. عن كتاب الفرق والجماعات لبدا النعم حنفي، انظر: الملل والنحل للشهرستاني، ص: 88 والفرق بين الفرق للبغدادي، ص: 59-60.

⁵ - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط: 2014، شركة دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان - الجزائر، ص: 225.

لزعامة إمام من غير البربر، فإن كافة الدول التي قامت ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية اعتمدت على شخصيات من غير البربر تمتعت بمنزلة دينية خاصة في معظم الأحيان⁶. إن البربر وجدوا في دعوة الخوارج الإباضية مبادئ التسامح، المساواة، العدل، التقى، والورع التي افتقدوها عند ولاية الأمويين والعباسيين من قبل، والذين أذاقوهم ألوان من الظلم، والتعسف في المعاملة، مما عمق مشاعر السخط والغضب تجاههم. وهذا ما أكدده حسن إبراهيم حسن: "...على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلا، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافؤوا على ما قدموه من خدمات كما كانوا يأملون مع اعتناقهم للإسلام، ولم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير، بل معاملة السيد للمسود. وكان من أثر ذلك انتحل البربر مذهب الخوارج لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية... وأما بغض البربر لولايتهم من العرب فيرجع إلى فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهليين⁷. ويضيف أن الصراع لم يكن صراعا يتصل بالدين، وإنما هو صراع سياسي لا غير: «إن قيام الخوارج من البربر في وجه العباسيين لم يكن خروجا على الدين، بل كان خروجا على السلطة الحاكمة، لظلم الولاة⁸. وكان تأسيس هذه الدولة يعد انتقالا من مرحلة الدعوة إلى مرحلة التطبيق الفعلي لمذهبهم⁹. واستطاعت أن تحافظ على استقلالها مدة ليست بالقليلة. عمل مؤسس هذه الدولة عبد الرحمن بن رستم على إقامة دولة قوية متماسكة، دعائمها مستمدة من الكتاب، السنة، والسلف الصالح من الأمة، و وقع الاختيار عليه بسبب علمه و ورعه، وكان الإمام أبو الخطاب قد قلده مناصب هامة كالقضاء، وهذا يدل على ثقته فيه واعتماده عليه، فقد تركه على القيروان، وذهب هو إلى طرابلس كي يعترض جيش الأحوص، وقد بين ابن الصغير سبب اختيار الإباضية له حيث اجتمع رؤسائهم فقالوا: «قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه في أحكامنا، وينصف مظلومنا، ويقيم لنا صلاتنا، ونؤدي إليه زكاتنا... ولكن هذا (عبد الرحمن بن رستم) لا قبيلة له يشرف بها، ولا عشيرة تحميه، وقد كان الإمام بن الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه أمورك¹⁰. وقد كان عند حسن الظن فيه، حيث شهد له معظم الإباضية، و وصلت أخباره في أطراف الأرض مشارقنا ومغاربها حتى اتصل ذلك من إخوانهم من أهل البصرة وغيرها من البلدان¹¹. ونظرا لسيرته الحسنة في الناس، جاءه الدعم من إخوانهم من أهل البصرة قدره ثلاثة أحمال، فوزعها الإمام على ملاء من الناس فانتعشوا وحسنت حالهم، و وفروا لأنفسهم عيشة مرضية، كما وفروا وسائل الحماية لدولتهم، حيث اشتروا كل ما يلزمهم من سلاح وغيره، يدفع عنهم كل عدو متربص قريبا كان أم بعيدا. وقد بعث أهل المشرق أموالا أكثر من الأول، فلما وصلت إلى عبد الرحمن، شاور أصحابه، فقالوا له: رأيك أمير المؤمنين، فلما ردوا الرأي إليه، قال لهم: أما إذا أردتم إلينا رأيها، فرأيي فيها أن ترجع إلى أربابها، فهم أحوج إليها منا، وقد استغنينا وقويننا، فشق ذلك على الرسل، وليس عليهم

⁶ - الخوارج في بلاد المغرب، ص: 144.

⁷ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط7، دار الأندلس، بيروت - لبنان، 1964، ص: 208، 207.

⁸ - المصدر نفسه، ص: 208.

⁹ - محمد عيسى الحري، الدولة الرستمية، ط3، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987، ص: 7.

* - عبد الرحمان بن رستم بن بهرام، مؤسس أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة، وأول من ملك الرستميين فيها، كان من فقهاء الإباضية في إفريقيا عرف بالزهد والتواضع، وكان على جانب عظيم من العلم والعمل والعدل، وهو فارسي الأصل، بوع بالإمامة سنة 160هـ توفي 171هـ، معجم أعلام الجزائر ص: 147، 148.

¹⁰ - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمد ناصر وآخر، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص: 29، 30.

¹¹ - المصدر نفسه، ص: 32.

بد من طاعة إمامهم، فردوها إلى المشرق، فعجبوا من زهادته في الدنيا ورغبته في الآخرة، فأقروا بإمامته وواصلوه بكتبهم ووصاياهم¹². ومما يكشف عن طوية هذا الرجل الطيبة ونواياه الحسنة، وإخلاصه لدينه وديناه، أنه سلك طريق الفاروق عمر رضي الله عنه، فحين حضره الموت، جعل الخلافة شورى، وحصرها في سبعة نفر، كان يرى فيهم حسن السيرة، وقوة في الدين، والفقه والقدرة على القيادة، وسياسة الدولة¹³. ثم شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الأموات^{*}، وغرس البساتين وإجراء الأنهر، واتخذ الرحاء والمستغلات¹⁴، وعملوا على نشر العربية وعلومها والإسلام، وبناء المساجد من طرابلس وحتى وهران، بسائر المدن والقرى في دولتهم، واتخاذها كمدارس وجامعات لتعليم العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، وعلوم العربية، وكان مؤسس هذه الدولة عالما قد ألف كتابا في تفسير القرآن الكريم لم يصل إلينا. وكان الإمام أفلح بن عبد الوهاب فقيها يحب العلم، ويعمل على نشره وتشجيع اكتسابه، وكان يرسل البعثات إلى العراق لشراء الكتب، وكان عالما في الفلك والحساب، كما كان شاعرا¹⁵. وهذا الأمر يصدق على الكثير منهم. فقد أصبح لهذه الدولة عواصم، ومراكز علمية مشهورة، وعلماء معروفون، وكانت تاهرت تضم مكتبة من أعظم ما عرفت بلدان المغرب العربي، حيث حوت على ثلاثمائة ألف مجلد من مختلف أنواع الآداب والفنون والعلوم¹⁶. فقد أخذوا بأسباب التمدن والتحضر، وذهبوا في ذلك مذهبا بعيدا، تكشف عن رغبتهم الجارحة في الظهور والبروز كدولة إباضية قوية منيعة لها نفوذها وهيبتها واستقلالها في المغرب الأوسط.

إن تأسيس دولة إباضية في المغرب الأوسط كان حلما كثيرا ما راود أصحاب هذا المذهب، وها هي الظروف الآن قد أصبحت مهيأة. والحقيقة التي يجب التأكيد عليها والتنويه بها، هي أن الإباضية قد أخلصوا النية، وأنجزوا ما يطمحون إليه، وذهبوا في ذلك إلى أبعد الحدود، إن هذه الدولة الفتية قد حققت إنجازات عظيمة، ونتائج باهرة في مجالات كثيرة علمية، فكرية، اقتصادية وعمرانية، جعلتها قبلة العلماء والتجار وأصحاب المذاهب المختلفة لما وجدوا حرية وتسامح وعدل^{*}. فالمعتزلة ومنهم الواصليّة (أتباع واصل بن عطاء) لم يجدوا عنتا أو اضطهادا من طرف حكام الإباضية، بل وجدوا متنفسا وحرية لم يجدوها عند غيرهم، فقد ذكر ياقوت الحموي: وكان صاحب تاهرت ميمون بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام... كان ميون هذا رأس الإباضية وإمامهم، ورأس الصفرية والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة، وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها¹⁷. ويشير ابن الصغير

¹² - أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، ، تح: إسماعيل العربي، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون- الجزائر، 1984، ص: 84.

¹³ - المصدر نفسه، ص: 84.

^{*} - الأراضي الميتة.

¹⁴ - المصدر نفسه، ص: 36. المستغلات: من الغلة ومعناها الدخل من كراء دار وأجر غلام وفائدة أرض. وألت الأرض أعطت الغلة.

¹⁵ - عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، ط، 2013، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ص: 236.

¹⁶ - المصدر نفسه، ص: 237.

^{*} - يشير ابن الصغير إلى ذلك: ليس أحد ينزل بهم من الغبراء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، وأمانته على نفسه وماله، حتى لا يرى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين و رجتهم، وهذا مسجد البصريين، واستعملت السبل إلى السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروها. المصدر نفسه، ص: 36. وأشار في موضع آخر: ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، ص: 117.

¹⁷ - شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت - لبنان، مج: 2، ص: 8.

إلى المناظرات التي كانت تجري بين فقهاء المذاهب المختلفة متسمة باللباقة والملاطفة: «ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قريوه وناظروه أطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك»¹⁸. وكان بتيهرت مؤرخون وعلماء فضلوا الاستقرار فيها، وفيها عرفوا واشتهروا وذاع صيتهم، بالرغم من اختلاف عقائدهم وديانتهم، وهذا أمر ينبئ عن تسامحهم كابين الصغير صاحب كتاب أخبار الأئمة الرستميين، وهو أقدم كتاب وصل إلينا، مع أنه مالكي، والعالم التاهري اليهودي يهودا بن قريش التاهري، الذي كان لغويا يجيد العربية، العبرية، الفارسية والآرامية، كتب في علم اللغة المقارن بين العبرية والآرامية والعربية. وأبو سهل الفارسي الذي كان يتقن البربرية، وشغل ترجمانا في بلاط أفلح. وقد حرر كتباً دينية بالبربرية¹⁹.

وهذه العوامل الأخيرة كانت فعلاً دعائم قوية سمحت لمثل تاهرت أن تذكر مع "بلخ" و"العراق" و"دمشق"، وهي حواضر يضرب بها المثل الرقي والتطور والازدهار. ولا نعجب إذا ما وجدنا العلماء والمؤرخين والجغرافيين يشيدون بها وينوهون بعظمتها وجلالها، ولنا في شواهد كثيرة تعزز ما ذهبنا إليه، ومن العلماء الذين وقفوا أمام جمال تيهرت، فوصفوا ما وقعت عليه أبصارهم، وما شاهدوه فعلاً، نذكر ابن الصغير*، حيث يقول وهو يتحدث عن أفلح بن عبد الوهاب*: «وكان أفلح قد عمر في إمارته ما لم يعمر أحد ممن كان قبله، فأقام خمسين عاماً أميراً حتى نشأ له البنون وبنو البنون، وشمخ في ملكه وابتنى القصور، واتخذ باباً من حديد، وبنى الجفان وأطعم فيها أيام الجفان، وقد تقدم ذكرها قبل هذا، وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهار... وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم، وكانت العجم قد ابتنى القصور...»²⁰. الملاحظ أن وصف ابن الصغير يتسم بالإجمال والعموم إلا أنه يعطينا صورة واضحة وقوية عن الدرجة التي اعتلتها تيهرت من الرقي والتطور حتى أصبحت قبلة الناس من كل مكان، تجاراً وعلماء وأصحاب مذاهب مختلفة، والتوسع العمراني الذي حققته، والرخاء الذي وصلت إليه. وهذا ما أكدته ابن خلدون: «ومتى عظم الدخل، عظم الخرج بالعكس، ومتى عظم الدخل والخرج، اتسعت أحوال الساكن ووسع المصير»²¹. والملاحظ أن أسلوب ابن الصغير فيه نوع من الاسترسال والعفوية في العرض، والجميل تترى متساوقة يربطها حرف الواو، للدلالة على جمع وسرد للأحداث مجتمعة، لأنه ينقلها بعين مؤرخ يحاول أن يجمع سلك الأحداث، على حسب ما توافر لديه من أخبار أو ما شاهده هو نفسه. وإذا ما انتقلنا إلى علماء الجغرافيا والمؤرخين فالنصوص في عمومها يغلب عليها الإيجاز والاقتضاب، فهذا زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت682هـ) بعد أن يتحدث عن تاهرت القديمة والحديثة، يقول: «... وهما كثيرة الأشجار وافر الثمار، سفرجلها يفوق سفرجل الآفاق طعماً وحسناً، وبهما كثرة الأمطار والأنداء والضباب وشدة البرد، قلما ترى الشمس بها، وذكر أن أعرايا دخلها، وتأذى من شدة بردها فخرج منها إلى أرض السودان، فأتى عليه يوم شديد الحر فنظر إلى

¹⁸ - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمد ناصر وآخر، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص: 102.

¹⁹ - عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، ط: 2013، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ص: 248، 249.

* - فقيه و مؤرخ يقال أنه شيعي المذهب استقر في تيهرت في عهد أبي اليقظان بن أفلح والأخبار عنه شحيحة.

* - ثالث الأئمة الرستميين (208-258هـ)

²⁰ - المصدر نفسه ن، ص: 61، 62.

²¹ - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط: 9، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2006، ص: 284.

الشمس راكدة على قمم رؤوسهم، فقال مشيراً إلى الشمس: « والله لئن عززت في هذا المكان، لطلما رأيته ذليلة بتاهرت »²². ويقول كاتب مراكشي (مجهول) في كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار مضيفاً بعض المعلومات التي أشار إليها سابقه كشهرتها، والصور الذي يحيط بها، وقصبتها المعصومة وسوقها، وتحدث عن موقعها، وعن الأنهار التي تمر بها، وهي تدل على وفرتها: « ومن مدن المغرب الأوسط المشهورة، مدينة تاهرت، وهي مدينة مشهورة قديمة عليها سور صخر، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة، ومدينة تاهرت في سفح جبل يسمى قرقل، وهي على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب ويسمى منية، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تانس، ومنه تشرب أرضها وبساتينها، وكان لها بساتين كثيرة، فيها جميع الثمار، وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسناً وطعماً ورائحة، وبلد تاهرت شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج... »²³. وأغلب العلماء والجغرافيين والمؤرخين يؤكدون على الجانب الجغرافي، والبارز في خصب أراضيها ووفرة مياهها، وكثرة خيراتها وتنوعها، ولا أحداً يخرج عن ذلك، فالأصطخري (ت346هـ) يقول فيها: « وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه »²⁴. ويقول فيها المقدسي: « تاهرت هي اسم القصبة أيضاً هي بلخ المغرب، وقد أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبتت حولها الأعين، وجل بها الإقليم »²⁵. ويقول الشريف الإدريسي (ت560هـ): « ومدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية، تدخل أكثر ديارهم، ويتصرفون بها، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضرباً من الفواكه الحسنة، وبالجملة إنها بقعة حسنة »²⁶.

وعلى كثرة غلاتها وتنوعها نجد عدد من العلماء يشيد بسفرجلها طعماً وحسناً ورائحة، وهذا لا يتوفر إلا في مدينة تاهرت على هذه الصورة، كما تحدثوا عن أسواقها العامرة التي يعرف نشاطاً كبيراً، لهذا كانت مقصد التجار من كل حذب وصوب، وأشاروا كذلك إلى الثروة الحيوانية التي تحقق مكاسب هامة لهم، يقول الإدريسي في نزهة المشتاق: « ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة، وبأرضها مزارع وضياع جمة، وبها من نتاج البراذين والخليل وكل حسن، أما البقر والغنم بها فكثيرة جداً، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة »²⁷. وهذا ما يؤكد ابن حوقل (ت367هـ): « وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات »²⁸. أما بالنسبة لسكان هذه الدولة فأغلبهم من البربر الذين اعتنقوا المذهب الإباضي وهذا ما أشار إليه الأصطخري: « وبها الإباضية وهم الغالبون عليها »²⁹. وفيها يقول إسحاق ابن الحسين المنجم (ق4هـ): « وهي من أجل بلاد البربر »³⁰. ولنا وقفة مع المقدسي لأنه ربما وجد من المبالغة المسرفة أن نجعل تاهرت مدينة تنافس أقرانها كدمشق وقرطبة، وهذا بعد أن عدد صفاتها، وكثرة

²² - زكريا بن محمد بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت، ص: 169.

²³ - كاتب مراكشي (مجهول) (ق6هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص: 178.

²⁴ - أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي الأصطخري، المسالك والممالك، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، ص: 34.

²⁵ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص: 128/1.

²⁷ - نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص: 156/1. انظر الروض المعطار، ص: 126/1.

²⁸ - محمد بن حوقل البغدادي، صورة الأرض، دار صادر، بيروت - لبنان، 1938.

²⁹ - الأصطخري، المسالك والممالك، ص: 34.

³⁰ - إسحاق بن الحسين المنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت - لبنان، 1408هـ، ص: 100/1.

غلاتها، ووفرة مياهها، ونشاط أسواقها وطيبة أهلها وشهرتها، حتى أمّها الناس من كل مكان، بين طامح للكسب وطالب علم وباحث عن الأمن، لكن هذا لا يجعلها في مصاف تلك البلدان، وهذا واضح كل الوضوح من خلال كلامه: « تاهرت هي اسم القصبة أيضا، هي بلخ المغرب، قد أحرق بها الأنهار والتف بها الأشجار وغابت في البساتين، ونبتت حولها الأعين وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب يفضلونها على دمشق وأخطئوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، وهو بلد كبير كثير الخير رحب وفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء، جيد الأهل قويم الوضع محكم الرصف عجيب لو غير أنه متى يقاس المغرب بالشام وأين مثل دمشق في الإسلام³¹ ». ما نلاحظه من كلامه أنه في البداية وسماها بلخ المغرب، وقد ذكر هذا الكلام سابقا في معرض حديثه عن بلخ، وهي جنة خراسان، وأشار أنها عروض تاهرت المغرب ونظير دمشق الشام³²، لكنه حين تحدث عن تاهرت فكأنه سواها ببلخ، لكن هذه التسوية لا تصل إلى دمشق أو قرطبة، ويسجل ملاحظته كأنها جملة معترضة: « يفضلونها على دمشق وأخطئوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا » وقبل نستوضح هذه القضية، يجب أن نشير إلى كلام ساقه الكاتب في مقدمة كتابه، لأنه سيوضح لنا الأمر وييسر فهمه : « وفي كتابنا اختصار لفظ يدل على معان مثل قولنا لا نظير له نريد أن ليس مثله البتة مثل معنقة بيت المقدس، ونيدة مصر، وليمون البصرة، وهذه أشياء لا يرى مثلها وإن كانت أجناسا، فإن قلنا غاية، فإنها تعني في الجودة من الأجناس مثل إجاص العمري بشيراز وتين الدمشقي بالرملة...»³³. وربما قال هذا الكلام من باب التحري وتوخي الحذر فيما يصدره من أحكام، وهذا ما يفرضه المنهج الموضوعي، أو أن يفهم منه غير ما يريد لأن بعض الأحكام قد تبدو مبالغاً فيها، يجعلها معرضاً للشك أو حتى الرفض، لهذا حاول أن يحدد بعض مصطلحاته حتى يفهم قصده. فإذا كانت كثيرة الخيرات وافرة المياه، بهية المناظر، فهي من جهة أخرى كانت مقصد العلماء والأدباء، « قال بكر بن حماد أبو عبد الرحمن، وكان بتاهرت من حفاظ الحديث وثقات المحدثين المأمونين، سمع بالمشرق ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر وإفريقيا ابن سحنون وغيرهم، وسكن تاهرت، وبها توفي، وهو القائل³⁴ :

³¹ - أحسن التقاسيم في معرفة الإقليم، مصدر سابق، ص: 228/1.

³² - المصدر نفسه، ص: 301/1.

³³ - المصدر نفسه، 8/1.

³⁴ - معجم البلدان، مج: 2، ص: 8.

ما أحشن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا ما بدت كأثما تنشر من تحت

فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على سمت

تفرح الشمس إذا ما بدت كفرحة الذمي بالسبب

الخاتمة: إن وقفنا هذه لا نريد منها، مدى مصداقية أحكامه تجاه تاهرت، فتاهرت قد قرّضها الفقهاء، العلماء، الرحالة والجغرافيون ووصفوها بالجلال، العظمة، بالكبر، والشهرة، وقرنوا اسمها ببلخ، العراق، دمشق وقرطبة، وما ذلك إلا لأنها بلغت شأوا من الازدهار العلمي والفكري والحضاري والعمراني والاقتصادي، واكتسبت مرتبة أهلتها إلى بلوغ هذه الدرجة الرفيعة بين تلك المدن الزاهرة. وكما ألمعنا آنفا أن هؤلاء العلماء على اختلاف العصور التي ألفوا فيها كتبهم، يكاد حجم نصوصهم على قصرها أن يكون متقاربا جدا، باستثناء صاحب معجم البلدان الذي أطال نوعا ما عن سابقه، كما أن الأسلوب لا يختلف كثيرا عندهم، حيث يجمع بين الدقة والوضوح مع جمالية تصدر عن العبارات القصيرة التي يكللها السجع في كثير من الأحيان. وما تاهرت في الحقيقة، إلا صورة مشرقة تألقت في سماء المغرب الأوسط، لما أخذت

بأسباب التحضر، ثم أفلت بعد أن دب الضعف والوهن في أوصالها، نتيجة الصراعات والاضطرابات، التي أتت على الأخضر واليابس، وكان ذلك على أيدي الفاطميين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الصغير. (1986)، أخبار الأئمة الرستميّين، تح: محمد ناصر وآخر. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي الأصبخري. (دت)، المسالك والممالك. الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة.
- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر. (1984). سير الأئمة وأخبارهم، تح: إسماعيل العربي. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون - الجزائر.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي. (دت). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مكتبة مديولي - القاهرة.
- إسحاق بن الحسين المنجم. (1408هـ). آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان. عالم الكتب، بيروت - لبنان.
- الشريف الإدريسي. (1409هـ). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. عالم الكتب - بيروت، لبنان. انظر الروض المعطار في خبر الأقطار محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري. (1980). ت: إحسان عباس، ط: 2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت - لبنان.
- حسن إبراهيم حسن. (1964). تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. دار الأندلس، بيروت - لبنان.
- زكريا بن محمد بن محمود القزويني. (دت)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت.
- شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي. (دت) معجم البلدان. دار صادر بيروت - لبنان.
- عبد الرحمن بن خلدون. (2006). مقدمة ابن خلدون. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- عثمان سعدي. (2013). الجزائر في التاريخ. شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر.
- كاتب مراكشي (مجهول) (ق6هـ). (1986). الاستبصار في عجائب الأمصار. دار الشؤون الثقافية، بغداد.
- محمد بن حوقل البغدادي. (دت) صورة الأرض. دار صادر، بيروت - لبنان.
- محمد عيسى الحريري. (1987). الدولة الرستمية. دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت.
- محمود إسماعيل عبد الرازق. (1985). الخوارج في بلاد المغرب. دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب.
- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي. (2014). تاريخ الجزائر العام. شركة دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان - الجزائر.